الزمن في رثاء المدن

د. مريم الهاشمي

الزمن:

إن الزمن و المكان والإنسان زوايا ثلاث لمثلث لا تكتمل أضلاعه إلا بها، ولا يمكن أن تجد الموضوع الواحد دون أن يتأثر بالآخر، فالإنسان الذي يعيش تجربة ما يكون هو المحور الأساسي الذي يلعب فيه الزمان والمكان دوريهما، ولا يمكن بيان أية تجربة سواء أكانت سعيدة أم حزينة دون وجود الزمان والمكان اللذين تأثر بهما الإنسان وأثر فيهما، فكون التجربة الشعورية.

وحيث إن التجربة عند الرندي والشيرازي كانت المعاناة، فنراهما في توتر واضطراب والشاعر مع الزمن، دائما في حساب وأهبة وتحفز وصراع، ينام خائفاً من هجومه وضرباته، فكأنه محارب دائماً،وقد دلت مؤشرات عديدة على هذه الرؤية، تجلت في ظروف الزمان، سواء بلفظها أو مفهومها. وكذلك المكان لعب دورا رئيسيا، فهو ينمي مضمون الحرمان والمعاناة والاغتراب.

وللزمان مغزى خاص بالنسبة للإنسان، لأنه لا ينفصل عن مفهوم الذات، فنحن نعي نمونا النفسي في الزمان، وما نسميه الذات أو الشخص، أو الفرد لا تحصل خبرته، أو معرفته إلا من خلال تتابع اللحظات الزمانية والتغيرات التي تشكل سيرته،فالزمان هو الصورة المميزة لخبرتنا، لعلاقته بعالمنا الداخلي، بالانفعالات والانطباعات والأفكار، فكأن لا خبرة هناك إلا وهي تتسم بدليل زماني ملاصق لها.

الزمان قضية أساسية، بل حقيقة حتمية لا مناص منها، تعايشه وتعيه جميع الكائنات على مختلف مستوياتها وتطورها، فالحضارات جميعها على مختلف العصور والأزمان لم تهمل العنصر الزمني بل أدركت حقيقته وأهميته، وتبعاً لذلك اخترعت الأساطير والرموز لتصويره، ثم شيدت الأدوات لقياسه، ونجد فيلسوف اليونان القديم أرسطو يعرف الزمن بأنه عدد أو سلسلة عددية موجودة في تصورنا نحن لأجزاء الحركة، سابقة وأخرى لاحقة، أي لبعد و قبل، ولا يكتفي بهذا التعريف بل يربط أصل فكرة الزمن بالإنسان، بمعنى يتعذر وجود الزمان بدون الإنسان.

ووجود المكان لا يقل أهمية عن الزمان، فالمكان هو البيت الذي ولدنا فيه، والذي عشنا فيه الأحلام، وهو الوطن الذي ترعرعنا فيه، وأثر في شخصياتنا وأفكارنا ومعتقداتنا وخياراتنا، فارتبط المكان بالذكريات التي تجعلنا – وكذلك المتلقي – نستعيد تجربتنا.

والبيت مثل الوطن، يحمي أحلام اليقظة، والحالم، ويتيح للإنسان أن يحلم بهدوء إن الفكر والتجربة يكرسان وحدهما القيم الإنسانية، ولهذا فإن الأماكن تعيش معنا طيلة الحياة، وإن كل أماكن عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها، والتي استمتعنا بها وتآلفنا مع الوحدة ستظل راسخة في داخلنا لأننا نرغب في أن تبقى كذلك فالإنسان يعلم غريزياً أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق، يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر، وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها لنا.

وهذا ما سنلاحظه من خلال موضوعات القصيدة، والتفاعل معها وكيف أنها مرتبطة مع بعضها البعض، فالزمان يتأثر ويؤثر، بالإضافة إلى أنه لا يوجد مستقلاً عن المكان، والمادة، بل يندمج مع المكان مكونا كينونة واحدة تعرف بالزمكان، ويستعصي علينا إدراك الزمن دون الذات العاقلة، فنحن المدركون في هذا العالم.

والإنسان هو المحور الأساسي هنا، فهو الذي يتأثر ويبين التأثير، وهو الذي يتفاعل بشكل رئيسي فينعكس ذلك عليه وعلى ذاته، بل قد تبقى آثار ذلك التفاعل في نفسه لزمن طويل، إن الترابط بين الزمان والمكان والإنسان لا يمكن الاختلاف عليه فالحياة الإنسانية تعاش في ظل الزمن، إذن فالذات الإنسانية هي المتأثرة بأوضاع كانت في زمان ومكان معينين جعلته يعبر وينفعل.

وكان التلازم الوظيفي بين الزمن والذات فيما يتعلق بالماضي، والماضي متعلقة به الذكريات، فكانت العلاقة وطيدة بين الذاكرة والذات، فالماضي يختلف عن المستقبل بأنه يترك آثاراً، في حين أن المستقبل لا يفعل.

ولهذا كانت الذات مرتبطة بالمعاناة التي كانت في الماضي، ونراها في مواضع كثيرة متقوقعة في الماضي لا تريد الخروج منه، لقوة تأثير الماضي عليها، وضعفها أمامها وعجزها عن تخطيها والنظر إلى الأمام.

منذ بداية ظهور الإنسان على هذه الأرض، كانت هناك مؤثرات تؤثر فيه وعليه وكذلك هو فقد كان يؤثر في البيئة المحيطة به كما كانت تؤثر عليه، فالعملية تكاملية ولكل فعل رد فعل – كما هو معلوم – ومرت عليه ظروف وأهوال وأحوال على مر القرون، منها ما جعلته يكون إنساناً أفضل وشجعته على التقدم والرقي والتطور ومنها ما جعلته يذوق الويلات لضياع حقوقه وهدر إنسانيته ؛ فلا بد للإنسان أن يؤثر ويتأثر وهذا أمر طبيعي، والذي يعنينا هنا ما تفاعل معه من خلال أحداث مرت به قبل وأثناء وبعد سقوط وطنه، ورأينا أن ثلاثة عناصر رئيسة تفاعلت معه بصورة كبيرة وهي: الزمن، المكان والإنسان ويندرج تحتها عناصر فرعية.

والذات إنما نعني بها الروح التي سكنت وتعلقت وعاشت، والتي تأثرت وتنفست حضارة وتعاليم وتقاليد كبرت ونمت معه،فذات الشيء حقيقته، وذات نفسه أي سريرته المضمرة. وتنوعت الاتجاهات الفكرية في تناول مفهوم الذات منذ الفلاسفة القدماء، وهذا ما يؤكده التطور التاريخي للمفهوم عبر الأزمنة المتعاقبة مما ترتب عليه تعدد التعريفات وتنوعها تلك التي تناولت مفهوم الذات عند الباحثين فهناك من يعتبرها الوصف الشامل الكلي، الذي يستطيع الفرد أن يعطيه عن نفسه في أي وقت يطلب منه ذلك، في حين يخصها البعض بإدراك الفرد لاتجاهاته ومشاعره ومعلوماته عن قدراته ومهاراته ومظهره وتقلبه الاجتماعي، ويعتبرها آخرون بأنها مجموع الإدراكات الكلية التي يكونها الفرد عن نفسه، واللغة التي يستخدمها لوصف ذاته. ويتضح لنا أن الذات البشرية تتأثر بما حولها من أمور اجتماعية و اقتصادية وسياسية، وتتغير نواتجه بتلك التغيرات، ولهذا تغيرت الذات عند الشاعرين بظروف قد مرت بهما، والتغيرات التي أثرت فيهما من بناء وانشغال وانهزام كانت واضحة من خلال أبيات وردت في القصيدة، فكان التعبير منهما عن طريق القصيدة والألفاظ والصور ؛ حيث إنهما من أهل الفن الذي يجد في الشعر وصوره تعبيرا عن المكنونات الداخلية، لكن المقصود بالذات هو الذات الإسلامية عموما، وليس ذات الشاعرين فحسب.

أ- زمن بناء الذات:

إن بناء الذات – هنا – جاء مرتبطاً بالإيجابية، من خلال تفاعل الفرد مع الأحداث وتوجيهها بما فيه رضا الله ومصلحة المجتمع، لأن الدين الإسلامي بتعاليمه يبني في الإنسان المسلم الروح الإيجابية التي تؤهله للعطاء، وينمي فيه القدرة على الإنتاج والإبداع، ليعده إنساناً ناضجاً يستطيع أن يعيش حياته بالطريقة التي يرسمها الإسلام إنها عمل بناء وعطاء وتنافس في الخيرات، واستثمار للوقت والعمر والشباب والمال والحياة والطاقات، ويربط مفهوم الذات بمنظومة قيمية في مجال إيجابية السلوك بالإقبال على الحياة وإعمار الكون، والجدية في العمل والتفاعل مع أنشطة الحياة المختلفة بكل حماس ونشاط من غير تكاسل وفتور، حيث يطبق من خلالها منهج الله تعالى الشامل في الحياة، ويتسم بتحمل المسؤولية مع الرغبة و الإقبال والرضا الذاتي والصبر وعدم اليأس.

في قصيدة الرندي نرى بناء الذات فرضاً للوجود الإسلامي في قطر أوروبي جديد كيف لا وهناك قوة وتصميم على حضور الذات وبنائها بين دول وجيران لا يجمعهم لا دين ولا لغة، فكان لابد من الرغبة والإرادة القوية في سبيل ذلك. يقول:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان

نلاحظ من خلال أبيات الرندي أن بناء الذات كان مرتبطاً بالوجود الإسلامي والعربي ولا يمكن أن يكون ذلك بدون فتوح وقوة، فكانت الذات الإسلامية قوية المبادئ تسامحاً ومعاملاتٍ، وهكذا فرضت نفسها في بلاد كانت تنتظر بشغف من يخرجها من مستنقع الأسبان والكنيسة إلى حرية الإسلام، ومن ضياع الذات الإنسانية إلى رقيها واستقرارها ولم شعثها وانتصارها.

يقدم الرندي في هذه الأبيات الذات وبناءها في الزمن الجميل، ويوضح أن بناءها لم يأت على طبق من فضة، بل جاء بعد مناورات وحروب وتخطيط مسبق، وفي نفس الوقت كان الجمال والإباء حاضرين في صورة الرجل والذات التي بنت، فوصف الخيل والسيف أجمل وصف، إنها صورة تفيد الإعجاب والانبهار، وبوصفه الخيل والسيف تكتمل صورة الذات القوية المتمكنة التي حولت الحال إلى عز وسلطان. بالرغم من أن هذه الأبيات تخاطب الفاتحين المغاربة إلا أنهم شكلوا جالية هامة ساهمت في تأسيس البلد، ولهذا فهي معنية أيضا في هذه الأبيات.

فقد كان الإنسان الأندلسي ذا علاقة واهتمام بالخيل قبل مجيء المسلمين إليها ويعكس هذا الاهتمام به بوصفه أهمية هذا الحيوان وما يرتبط به من ذكريات بالإضافة إلى ما له من فوائد في مختلف ميادين الحياة وجوانبها العديدة، ويعرض الشاعر صفات الخيل من حيث مظهرها المتمثل في الجمال والرشاقة بما يبدو فيه الجواد في أبهى حلة مع تمثله في أكمل صفات القوة والسرعة وكرم الأصل،فهو جميل أنيق سريع.

ولا يعدو أن يكون هذا الوصف الجميل للخيل مدحاً للفارس، فصورة الخيل وحده لا تكتمل إلا بفارس قوي رشيق سريع، وجاء الشاعر بهذه الأبيات التي نرى فيها فخراً وعزة بزمنٍ كانت الذات الأندلسية فيها في أقوى عصورها وأجمل أحقابها.

جاء الرندي بالتعبيرات الدالة على أن الذات – وإن ذكر ما كان في الماضي – هنا ذات رؤى مستقبلية طموحة، كأنها لا تعترف بأن الأمور والأوضاع ستتبدل، فلا توحي بالنظرة التشاؤمية التي تزيد الطين بلة، فهو مازال معايشاً للأزمة والمعاناة، ولكن الذات هنا لابد أن تواجه، المحنة لقفز فوقها وصولاً إلى الجانب المشرق.

تواجهنا الحياة بمرها وحلوها، وفي آلاف مؤلفة من المواقف، التي تنال من مشاعرنا واهتمامنا، لأن من احترقت بدايته، أشرقت نهايته، ولأن الخطوة الأولى وما فيها من الجهد والضنك هي المؤشر الإيجابي لما بعدها، وفي مرحلة المعاناة الذاتية مع المصيبة أو المشكلة أو الواقع، لابد أن نربي ذواتنا على الإيجابية، فالمعاناة من سنن الحياة.

وجاءت الإيجابية بتعبيرات موحية، تعطيك مجالاً للتأمل وشحذ الهمم لتخطي المحن، وتزرع الأمل والتفاؤل في نفس المتلقي، بهدف إبعاده عن اليأس والإحساس بالعجز الذي قد تفرضه المعاناة ومتى امتلأت الذات بالأفكار التفاؤلية والسعيدة، جلبت وجذبت إليها الظروف والمشاعر، ولابد من الانسجام والتوقع الإيجابي، والنظر إلى الحياة من زواياها المبهجة، وطرد الخوف ونبذ الحسرة وعدم طأطأة الرأس وغمسها في الطين ؛ بل التشبث بما هو جيد، وإن كان ماضياً، ولكن استرجاعه بهذه الصورة المشرقة، هو دافع لمواصلة الحياة بأعناق مرفوعة متفائلة متطلعة لمستقبل جديد وحياة أفضل، وعدم الاستسلام للحاضر الذي يحاول قمع الحريات وحبس الذوات التي خُلقت حرة، وجبلت على العزة والكرامة.

لقد كان وصف الشاعر الخيل والسيف ليس فقط لأنهما من الفنون الأدبية، ولا لأنهما من أدوات القتال فحسب وإنما لدلالتهما على الحياة النفسية والشعورية لأهل الأندلس وأنها القوة الموصلة للمجد، وهي تلقي أضواء كاشفة على نفسية الشعب الأندلسي كما تبرز مدى الارتباط الوثيق بين أوضاع الأمن في الأندلس والقوة العسكرية التي عمادها الأول على الرجل التقي الشجاع والخيل والسلاح.

وهذا الاعتزاز يدل على الذات التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بكل ما حولها من أوضاع والذات هنا لا تعبر تعبيراً فردياً و لا تجربة فردية، إنما هي تعبير عن واقع عام وتجربة عامة. إن التعبير بالصورة الشعرية عن الحقائق المجردة، ومضمون الحياة وكوامن النفس الإنسانية وأحاسيسها من مزايا اللسان العربي، وشاعرنا الأندلسي أضاف ما أوحت به الطبيعة الأندلسية وبيئتها الاجتماعية وما ألهبت الحروب الثغرية قريحته من أخيلة مبتكرة، وما أملته طبيعة التقدم والازدهار العلمي والفكري والثقافي. إذن فالذات كانت تنعم بالعز والتقدم والازدهار، وهذا ما تؤكده ألفاظ الشاعر، وصوره الشعرية، ولكن قد نتساءل كيف به يصور الخيل والسيف والحرب في وقتٍ كان الغرض من نظم القصيدة هو رثاء الأندلس ؟!

ونقول إن الشاعر الأندلسي إنسان قبل كل شيء يحس ويشعر ويتأثر بما حوله ولا بد أن يضاف إلى هذا – باعتبار كونه شاعراً – سرعة في التأثر ورهافةً في الحس وقدرة في التعبير والتصوير فهو إنسان فنان وليس إنساناً عادياً، فإذا ما تقلب في أحوال حياته ومرت به مراحل وأزمات وتحققت له أهداف وغايات أو بعدت عنه آمال وتمنيات ظهر ذلك في حياته فيكون قلقاً مضطرباً ضيق النفس،

أو يكون مطمئنا فرحاً متفائلاً.

وهذه الأبيات تبين زمن بناء وفخر وعز ضمن قصيدةٍ موضوعها العام هو الرثاء وهو أمر عادي بالنسبة لشاعر مر بظروف جعلته يذكر ذلك الزمن الذهبي، ويبدع في تصويره بألفاظٍ تدل على ما يريده من فخر، وتدل بشكل واضح على الجانب العسكري والحربي القوي الذي كان يتمتع به الأندلس وهو في أوج قوته وسلطانه.

وهكذا تبدو الأفكار والمعاني التي عرفها الشاعر في الأندلس في حلة زاهية وانسجام تام وتفاعل أدبي وذوقي مؤثر يؤدي إلى صورة فنية رائعة ذات مشاهد وتفاصيل جزئية يكمل بعضها البعض حتى ليكاد يبدو وحدة متكاملة وصورة رئيسة تعبر عن معنى كبير واضح وهو التوجع والشكوى. وهذا ينطبق على كل موضوعات القصيدة وصورها.

وفي قصيدة الشيرازي نرى بناء الذات في الأبيات الآتية:

تهنا بطيبِ العيشِ في مقعد الرضا
ودع جيَفَ الدنيا لطائفة النسرِ
ربحتَ الهُدى إن كنت عاملَ صالحٍ
وإن لم تكن والعصر إنك في خُسرِ
كما قال بعضُ الطاعنين لقرنه
بسُمر القنا نيلت معانقة السُمـر
وصان بلاد المسلمين صيانةً
بدولة سلطان البلاد أبي بكـر
ولو كان كسرى في زمان حياته
لقال إلهي اشدد بدولتـه أزري

نرى أن الذات جاءت في ظل التصور الإسلامي في أبيات الشيرازي، فالذات الإسلامية مجبولة فيه منذ الصغر، ويرجع ذلك إلى نشأة الشخصية الإسلامية وما جبلت عليه من شغف بالوعظ وحمية للدين.

ولهذا نرى الذات تعكس الشريعة السمحة في تفكير الشاعر وانفعالاته، فالتربية الإسلامية تدعو الفرد إلى أن يكون الإسلام هو الخلفية الفكرية التي تؤطر رؤيته للإنسان والكون والحياة، وهي المقياس للسلوك المقبول والمرفوض،وتقود مشاعره وحرصه على المصالح العامة ومصالح الآخرين، حيث ينأى بذاته عن المشاعر الأنانية التي تشرذم الذات، وتتقد فيه مشاعر إيجابية نحو أمته، ومما يسهم في تطوير ذاته، المساحات الثرية للقدوة والرمز، في حياة الأفراد والمجتمعات، حيث تشكل نماذج بشرية، تتسم بمفهوم إيجابي مرتفع لذواتها في ضوء النهج الإلهي يتسم بالتهذيب والانضباط.

ونرى الشيرازي يدعو إلى بناء الذات، والرجوع بها إلى ما كانت عليه من العز والمكانة، بأن تترك الدنيا وتعمل من أجل الآخرة، فلا ازدهار للذات والعودة بها إلى ما كانت عليه دون الرجوع إلى التعاليم الإسلامية والزهد في الدنيا، فنراه يلجأ إلى الحكمة التي استلهمها من حسه الإسلامي، وفي إتيانه بالحكمة في هذا الموضع يحيلنا على القول أنها وسيلة لعرض أحداث تاريخية، قد يكون فيها شيء من التعزي عما ألم ببغداد.

تهنا بطيب العيش في مقعد الرضا
ودع جيف الدنيا لطائفة النسر
ربحتَ الهُدى إن كنت عاملَ صالح
وإن لم تكن والعصر إنك في خُسر

نرى الثقافة الإسلامية رافده الأوفى، فألفاظه في هذا البيت - وفي غيره من الأبيات- مستمدة من الدين الإسلامي الحنيف، وذلك يعبر عن شخصيته الإسلامية ونشأته الدينية وحياته الروحية.

إن زمن بناء الذات عند سعدي الشيرازي مثل صاحبه الرندي، جاء مقترناً بالسيف والسلطان، لأن الذات في ذلك الوقت كانت واعية بدورها، متمسكة بمبادئ الدين الحنيف فقد اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على نبذ العصبية، وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه؛ وسبب ذلك في العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها، وكان المسلمون يرون أن لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات، ونضرب مثلاً لذلك بما وصل إليه الأمر في الدولة العباسية فلم يكن للدولة في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى، وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع تلك القوى، لقد كان جامعا قوياً غير مدعم بعصبية قومية، ويمكننا القول إن الدولةً العباسية على مبدأ إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ولما كانت الذات تنعم في ضوء التصور الإسلامي، متأثرة تأثراً كبيرا به، جاء الشاعر – كما أسلفنا- في سبيل تطوير الذات ومحاولةً منه لإرجاعها إلى ما كانت عليه ؛ حيث إن الغرض العام هنا هو الرثاء ومحاولة استرجاع ما ضاع ولم أجزاء الدولة والشعب المشتت، جاء بالرمز والقدوة، فذكر مليكه السلطان أبا بكر والي إقليم فارس، جاء به نموذجاً يتسم بمفهوم إيجابي لما كان يتمتع به من صفات لابد من الرجوع إليها حتى تقوم الذات مرة أخرى وترجع لما كانت فيه من عز وسلطان،

ولهذا يلجأ إلى وصفه الوصف المطلوب والمفقود في الذات العربية والإسلامية عزيزاً محبوباً كيوسف في مصر، جاء بهذه الصورة ليبين مدى حب الشعب لمليكه وأن الذي نريده هو العدل والحكمة وأن نتصف بما كان عليه الأولون، وحسن نبات الأرض من كرم البذر، يبين من خلال هذه الصورة أن الذات كانت كريمة الأصل فبكرمها صينت الدنيا وسعدت وشدت من أزر إخوانها فالشاعر هنا لا يأتي بأوصاف مليكه وما كان الزمن في ولايته، وإنما يسرد واقعا تاريخياً صادقاً، فقد استخدم سلاحه الأدبي ليبين تجربته الذاتية.

ويضاف إلى الصدق التاريخي هذا الصدق المتعلق بذات الشاعر حين تكشف المعاني المختلجة فيها، وتصرح بما يكتم منها، وتعترف بالحق في جميعها، وهذا قريب من الصدق الفني، أو إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية، بالإضافة إلى ما يبدو من موضوع الحكمة من إمكان رؤية التجربة الإنسانية عامة.

وهكذا فزمن بناء الذات كان متزامناً مع بناء الحياة والحضارة، مرتبطاً ومتصلاً مع مبادئه، وكان وليد هذا الارتباط ذاتا متزنة متميزة عن غيرها واثقة ذات هيبة في مجتمعها، أدى إلى وصولها إلى مرحلة مهمة في نموها وهو الوصول إلى السلام الداخلي،الذي يذهب بصاحبه إلى تحري السلام في المجتمع.

إن السلام الداخلي، قيمة نادرة، تحققت في ضوء التربية الإسلامية في أسمى صورها، حيث هناك تناغم لا صراع في أعماق الذات المسلمة، نابع من السلام الداخلي في الأعماق، التي تتسم بالنسق المثالي والواقعي معاً، فتثريها بالطهر السلوكي، وتخلق أفراداً يتمتعون باستقرار عاطفي، ويكونون مجتمعاً صحياً مستقراً ويكون نتاج ذلك إنساناً صالحاً معتدلاً في سلوكه وتطلعاته وعبادته ومشاعره وانفعالاته، فيحفظ بذلك المجتمع من الغلو والصراع والتصادم والاختلال.

وهذا ما كانت عليه المجتمعات الإسلامية في زمن بناء الذات، لا أقول إنها كانت مثالية، ولكن كان الغالب عليها الأمن والاستقرار والرخاء والسلطان، وهو معجزة في حد ذاتها أن تستظل كل البلاد في رقعة جغرافية واسعة تحت إمرة خليفة واحد يدينون له بالسمع والطاعة، وتتميز كل الذوات في تلك البقاع بميزات إسلامية واحدة، وتنتهج منهجاً موحداً في حياتها، وتذوب في مبادئها بل وتدافع وتذود عنها بأرواحها، تلك الذات كانت أبية مترفعة قوية.

ب- زمن انشغال الذات:

إن انشغال الذات من الأسباب التي أدت بها إلى نهج طريق لا يناسبها، واتباع مسلك لا يعقبه خيرٌ لها، فانشغلت عما ينفعها إلى ما يضرها، لأسباب يمكن أن نعزوها إلى دوافع أو صراع بين الدوافع، وهذا ما يكون عندما تبتعد الذات عن منظومتها التي خلقت من أجلها، والتي تكفل لها الأمن والسلام، وهذا الصراع هو الذي يدفع الذات إلى الانشغال عن مصلحتها.

تضمن الشريعة السمحة، مساحات ثرية، في ترسيخ الالتزام والوعي في الشخصية المسلمة، في أطر من الأمن والسكينة، والمجتمع المتكافل المتوادد المتراحم، بحيث تكون بعيداً عن تأجج الصراعات النفسية بين الدوافع المختلفة، ويأتي الصراع من الخروج عن منهج الله تعالى، واستغلال الوقت والجهد والمال في الدنيا، بلا طائل في أطر المتعة الزائلة، عوضاً عن استهلاكه في المستقبل الأخروي، وأرصدته الخالدة، لأنها الأصل ودار الجزاء، والدنيا دار العمل والتكليف،ولهذا راعى الإسلام الدوافع النفسية في الفرد، وإشباعها في ضوء القنوات الشرعية، بعيداً عن السبل التي نهت عنها الشريعة السمحة، فالإسلام دين واقعي، يخاطب الإنسان في أعماقه وكينونته، وهو مكرم لا محالة بين يدي الله تعالى، ومن هنا ضبطته في سلوكه ولم تتركه هكذا عبثاً، بل وازنت بين متطلبات عقله ومشاعره وجسده ومجتمعه، في أطر شاملة إنسانية، متسقة، بعيدة عن التناقض والتضاد.

ويكشف الرندي عن انشغال الذات من خلال الأبيات التالية:

وينتضي كل سَيفٍ للفناء ولـو
كان ابن ذي يزن والغمد غِمدانُ
أين الملوك ذوو التيجان من يمـن
وأين منهم أكاليل وتيجــان
فجائع الدهر أنواع منوعـة
وللزمان مسرات وأحــزان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظـان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخـــوان

ونرى من خلالها أن الذات قد ابتعدت عن نهجها القويم، ولهثت وراء متاع الدنيا وآثرت ما هو زائل على ما هو خالد، وكانت النتيجة الحتمية هي ضياع الزائل والخالد لها، ليزكي موقفه التاريخي جاء بسير وشخصيات أمم سابقة، وما كان لها من

عز وسلطان ومكانة، ولكنها آثرت الدنيا على الآخرة، أو انشغلت عن الآخرة، فيتساءل أين هي الآن ؟ بل يستنكر ذلك عليهم، في أنهم يعلمون تمام العلم مصير من ينشغل عن الحقيقة، ورغم ذلك يكررون أخطاءهم، ولا يعتبرون منها ؟

لقد وردت بعض الإشارات القصصية داخل النص الشعري، وهي إشارات تعتمد في أغلب الأحايين على الحكاية ولو بشكل بعيد، لتعبر عن رؤى خاصة.

ولهذا نرى في شعر الرندي - وهو شاعر رثاء الأندلس- مجموعة من القصص، بل إشاراتٍ موجزة تدل على قصص تاريخية مشهورة متداولة بين الناس، وكأنه بذلك يستشف مستقبل الأندلس وقد ضاعت، في أنها ستكون من بين هذه الأمم السابقة وسوف يتداولها الناس على أنها كانت حضارة إسلامية في الأندلس، نرى مشاعره من بين الألفاظ تتدفق إلينا بسهولة، وهي مشاعر الحزن وضياع الذات، ولكنها قد تكون أيضا قصصاً أتى بها ليتدارك القوم ما كان، وليشحذوا الهمم في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه وترميم ما تبقى.

لقد كانت الأندلس دار خصب ونماء وغنى، وموطن حضارة ولهو وجمال، فانصرف أهلها إلى متع الحياة يتذوقونها، فأسرفوا في طلب الملذات، ولم تجد من الملوك والفقهاء ما يزرعونه لأنهم لم يروا في عبث الناس ومجونهم ما يخشى منه على الدين ما دامت له الحرمة في النفوس، ولهم السلطان العزيز، فأرخوا عنان التساهل وأباحوا حرية القول والعمل، فساءت الأخلاق، فكان ضرر هذا التسامح أبلغ من ضرر التعصب والاستبداد.

فكأنه من خلال الأبيات هذه يبين فيما انشغلت الذات فيه من خلال القصص المذكورة، فذكر الأمم السابقة التي اهتمت بمبانيها وقصورها وسلطانها، فانصرفت عن الرعية، وانشغلت وتشاغلت عن دورها لمصالحها الخاصة، وفي موضع آخر يبين القتل بين الأصحاب والخيانة، وكأنه يشير إلى التناحر والفتن والعداوة بين الملوك والأمراء في الأندلس، ولم يشر إليها عبثاً، بل كانت محاولة منه لوقف التناحر وليعتبر أولو الأبصار، ولترجع الذات لما جبلت عليه من تعاليم الدين الإسلامي، الذي هو المخرج الوحيد، والذي بغيره لن ترجع الذات العربية والإسلامية لما كانت عليه من عز وسلطان وسؤدد.

ونرى تشابهاً كبيراً في انشغال الذات بين الشاعرين، يقول سعدي:

لحى الله من يسدي إليه بنعمة
وعند هجوم الناس يألف بالغدر
كأن دم الأخوين أصبح نابتاً
بمذبح قتلى في جوانبها الحُمر
رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم
لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو
وراءك يا مغرور خنجر فاتك
وأنت مطاط لا تفيقُ ولا تدري
على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده
وإنك يا مغرور تجمعُ للفخر
يا فاعل الذنب هل ترضى لنفسكَ في
قيد الأساري وإخوانٌ على سُرر

الغدر/ دم الأخوين / مغرور/ لا تفيق ولا تدري / أمدخر الدنيا / عار / يا فاعل الذنب / تجمع للفخر، نرى الألفاظ السابقة تدل على انشغال الذات انشغالاً واضحاً وتوضح أنها انشغلت بالفتن الداخلية وباللهث وراء الدنيا الفانية، والجمع لها وللتفاخر بين الناس، وبالمجاهرة بالذنب، مما جعلها تحيد عن نهجها السليم إلى نهج ترفضه الفطرة البشرية، فكانت النتيجة ما لحق بهم من ذل وتشريد وضياع.

لحى الله من يسدي إليه بنعمة
وعند هجوم الناس يألف بالغدر
كأن دم الأخوين أصبح نابتاً
بمذبح قتلى في جوانبها الحُمر
وراءك يا مغرور خنجر فاتك
وأنت مطاط لا تفيقُ ولا تدري

ينصحهم الشاعر بأن يفيقوا ويتعظوا بما حل بهم، أو ربما تكون تحذيرا لمن يأتي بعدهم أن هذه هي نتيجة انشغال الذات، وهذه عقبى الغافلين، وليحذروا من غدر النفوس الخائنة.ونراه يؤكد على أخوته للشهداء. وألا يغتروا بالدنيا ولا بسلطانهم، بل يحترسوا من غدر الزمان والأصحاب، لأن الغدر لا يأتيك إلا وأنت منشغل عنه بأمور أخرى حجبت عنك الحقيقة، وأعمت بصيرتك.ويتابع نصحهم في محاولة مستميتة لأن يتيقظوا، ويعيدوا للذات عزها، ولعل ما أصاب بغداد يكون عبرة ودرساً لمن يأتي بعدهم، أو حتى لمن هم في بقاع إسلامية أخرى، وكأنها لا تسمع ولا ترى بما حل بعاصمة الخلافة، وبالمسلمين !

وجاء هنا بخبر بمعنى الدعاء. نلاحظ الذات في هذا الموضوع ماضوية، مازالت متعلقة بالماضي و بالأمم السابقة، ولكن تعلقها هنا سلبي، فهي عاجزة عن تخطي الماضي لتستشرف المستقبل، فهي ذات نظرة تشاؤمية، استطاعت المعاناة الحاضرة أن تؤثر عليها سلباً، فلم تعد قادرة على تجاوز الأزمة، تخيم عليها

الأفكار التشاؤمية خائفةً مترددة فعجزها عن تصحيح الأخطاء جعلها تتمسك بالماضي، فهي شخصية اكتئابية غير مستقرة تتسم بالحزن واليأس والصعوبة في التفكير.

رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم

لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو

ويرى سكوت المسلمين وصمتهم وجمودهم، وعدم حراكهم لنجدة إخوانهم ذنباً حيث يستنكر ذلك منهم ويدعوهم إلى ترك سرورهم والهبة لنجدة المسلمين، فانشغال الذات عند سعدي لم يكن فقط في بغداد وإنما في البلاد الإسلامية الأخرى التي لم تهب لنجدتها.

وهنا نلاحظ الذات الآنية أو الراهنية التي تكيفت مع الأوضاع، فهي تريد أن تتقبل الوضع الراهن بهدف مواصلة الحياة، فوجود ذوات تشاركنا المعاناة تتطلب أن نساعدها على التكيف، ونأخذ بيدها لا بزيادة حجم المصيبة وإنما برؤية واضحة الأوضاع، ومن زاوية أخرى قد تعطينا بارقة أمل في حاضر يوصلنا لغد أفضل، فالذات مسئولة مسؤولية فرضها عليها الدين في أن يقف المرء مع المنكوب، والوقوف معه هنا ليس بمشاركته البكاء ليزيد همه هما، وإنما بالتخفيف ومحاولة إخراجه من دائرة اليأس والتشاؤم، وجعله يواصل مسيرته التي خلق من أجلها.

ونرى في الأبيات عاطفة حارة صادقة، تنعى انشغال الذات وتخليها عن الأخلاق السامية، وفقدانها روح التضحية وضعف العزيمة، وانهيار القوى، وضياع الأرض،وقد ركز الشاعر على العاطفة الدينية والحكمة كي يذكي همم النفوس ويعيد الذات إلى ما هي أهل له، ونلاحظ استخدامه الحكمة.

وسائر ملك يقتفيه زوالـه

سوى ملكوت القائم الصمد الوتر

أمدخر الدنيا وتاركها أسـى

لدار غد إن كان لابدَ من ذُخـر

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده

وإنك يا مغرور تجمعُ للفـخـر

نلاحظ أن السبب الرئيسي لانشغال الذات هي الدنيا وتناسي الآخرة على أنها الدار الباقية، وإن لم يقم سعدي هنا باقتباس مباشر من القرآن الكريم إلا أنه تمثل الدين الإسلامي وفكره، ونراه يدعو هنا إلى تعاليم الدين الحنيف في أن نعمل للآخرة كأننا نموت غدا وللدنيا كأننا نعيش أبداً.

وراءك يا مغرور خنجر فاتك

وأنت مطأط لا تفيقُ ولا تـدري

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده

وإنك يا مغرور تجمعُ للفـخـر.

ونلاحظ كذلك تكرار النداء في الأبيات السابقة في أكثر من موضع، والنداء هنا قد خرج من معناه الأصلي إلى معنى التحسر على فداحة ما نزل، والنداء من خصائصه في الأصل أنه يفرغ ما في النفس من شحنات عاطفية تتبدى تارة في الألم والحسرة وأخرى في الرغبة والتوق إلى ما يريد أن يحصل عليه الإنسان.

وما يريد هنا سوى أن تعود الذاتُ ذاتًا عربية عزيزةً أبيةً.

ج- زمن غربة الذات:

تواجه الفرد في رحلة الحياة عقبات ومصاعب، تتطلب تجاوزها، برفع مستوى حافزية الذات، ودافعيتها للحياة والعمل والعطاء، فيتم تجاهلها، والمضي مع حركة الكون نشاطاً ومثابرة ؛ لأن الحياة ليست على نسق واحد، ففيها من المتاعب والآلام وإنها تتطلب نفوساً قوية، ومعنويات عالية، وهمة متقدة،وأملاً بساماً، ولذلك فغياب تلك المعاني أو بعضها، هو الذي يوصل الذات إلى حد الانهزام أمام الحياة ومن هنا فإن الإحباط حالة انفعالية غير سارة قوامها الشعور بالفشل وخيبة الأمل تتضمن إدراك الفرد لوجود عقبات تحول دون وصوله لحاجاته،وبناءً عليه فإن تداعيات الشعور بالخيبة تؤدي إلى ارتداد الشخص نحو ذاته والانسحاب من المجتمع والحياة حيث يميل الإنسان إلى اجترار الهموم وتقبل أفكار الخيبة والفشل، وينحدر إلى درجة كراهية الذات ولوم النفس ومحاسبتها وتحميلها مسؤولية الفشل.

إن الذات عند الشاعرين مرت بظروف محبطات أثناء أحداث وتداعيات مهمة جداً في حياة كل منهما، ولهذا جاء الإحساس بالخيبة والفشل في أمر ربما لم يكن لهما دخل فيه، ولكنها الحمية والغيرة على الوطن والدين هي التي تجعل الإنسان يحس بالآخرين، ويتجرع مثلهم الألم والحسرة، ويحس بالمسؤولية اتجاههم، ويحاول أن يساعدهم على شق طريقهم من جديد، فهذه هي مبادئ ديننا الحنيف، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي نفوس الجميع، وأخذت الذات تحس بإحباط وغربة وهذا مما نراه واضحاً من خلال أبيات الشاعرين.

يقول أبو البقاء الرندي:

يمزق الدهر حتما كلَ سابغة

إذا نبت مشرفيات وخرصـان ()

أتى على الكل أمر لا مرد له

حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومَلك

كما حكى عن خيال الطيف وسْنانُ

يا رب أم وطفل حيل بينهما

كما تفرق أرواح وأبـــدان

لمثل هذا يذوب الإنسان من كمد

إن كان في القلب إسلام وإيمـــان

نلاحظ غربة الذات وتمزقها وقلقها في أبيات الشاعر فبدأها متشائماً منكسراً بأن الموت آتٍ لامحالة، ومن لم يقتل في الحرب مات بانقضاء أجله، فذكر الموت الذي هو من علم الغيب، يوحي بخوف وترقب حيث إن الإنسان دائم التوجس لما هو مجهول، وانقضاء الأجل بهذه الصورة يوحي بغربةٍ الذات المضطربة التي أصبحت غير متزنة، ضائعة بين سراديب القلق والخوف والألم والخيبة. وهنا يأتي بصورة معبرة عن مدى الغربة التي تعانيها الذات، والعبارات تؤكد بقوة وحضور عن ذلك يمزق الدهر / أمر لا مرد له / المصيبة / مالها على طول الدهر نسيان / حيل بينهما تفرق أرواح وأبدان / يذوب الإنسان من كمد، كلها عبارات تدل على العجز في مواجهة الأمر،وتوحي بالعجز عن النسيان، وبأن المصيبة قد زقت الأرواح والذوات وجعلت للهم والحزن الذي لا يستطاع إمضاؤه مقراً في القلب، حتى حيل بين الأرواح والأبدان التي فيها مستقر وسكينة لها.

ونرى أن هذه الغربة عن الذات لا يستطيع الإنسان تحاشيها أو البعد عنها، وقد يصح أن نقول هنا إن الزمن بحركته إلى الأمام، هو الذي صنع هذه الغربة، ولا نقصد هنا الزمن بمفهومه المجرد، وإنما مجمل المتغيرات التي حدثت.

ونقصد بالمتغيرات هنا المصيبة التي أنست ما تقدمها، وضياع الذوات وغربتها في ظل هذا المتغير.ونراه يذكر الطفل الذي حيل بينه وبين أمه، وهذا الفراق هو فراق عن الأمان والاستقرار والإحساس بالحب والرعاية، التي هي من الأمور المهمة لاتزان الذات البشرية، فجاء الاضطراب والخوف والغربة من هذا الفراق، والغربة الأكبر هو فراق الوطن.

وعند فراق الوطن يُفتقد إلى من يؤمن حاجات الذات الأساسية، فينمو بذلك الإحساس بالغربة في ذاته.وعند ذلك يفتقد الإحساس بالرضا والفخر فيفتقد المغزى الذاتي للإنسان فيغترب عن نفسه.

وغربة الذات حاضرة عند سعدي كما كانت عند صاحبه الرندي، وكيف لا وكلاهما تجرع من السم نفسه، وذاق من الكأس عينها، وكلاهما وقف حائراً مشدوهاً أمام منظر يذهب العقل ويغطي القلب طبقة سوداء كلها كآبة وخيبة تجعل الذات تهيم متخبطة حائرة لا تقوى على الثبات ولا تتعرف حتى على نفسها.

نسيم صبا بغداد بعد خرابها

تمنيت لو كانت تمر على قبـري

لأنَّ هلاك النفس عند أولي النهى

أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ

مررتُ بصم الراسيات أجوُبهـا

كخنساءَ من فرط البكاء على صخر

لقد كان فكري قبلَ ذلكَ مائـزاً

فأحدث أمرٌ لا يحيط به فكري

أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري

وأحمل آصاراً ينوء بها ظهـري

وربُ الحجى لا يطمئن بعيشةٍ

فلا خير في وصل يردف بالهجر

غربة الذات واضحة عند سعدي في موته وفي حياته، فما أشد غربةً للذات من هذه الغربة، الموت وهو المجهول الذي احتارت العقول في ماهيته، والذي يمكن أن يباغتنا في أي وقت وأي مكان وأية ساعة، هي مشاعر غربة كانت مستحوذة على الشاعر، ونراه في موضع آخر يبين غربة الذات في حنينها إلى الماضي، وتغير الدهر عليها فذكر أطلالاً كانت، وأخذ يجوبها باكيا كما كانت الخنساء تبكي على أخيها صخر

مررتُ بصم الراسيات أجوُبهـا

كخنساءَ من فرط البكاء على صخر

فالحنين إلى الماضي محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع (الحاضر)، فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه فإنه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي لكي لا يحس بثقل الحياة ومآسيها، وربما يتذكر اللحظات الحزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحياها، فيزيد حزنه حزناً، وذكر الأطلال وما يخلفها من شعور بالغربة، ورغبة في الانفصال عن الواقع، هو اتحاد بالماضي البعيد والحديث عن الديار له دلالة عميقة، يحاول به الشاعر أن يتحد بكل دقيقة من دقائق الماضي، وأن يتصل بكل شيء فيه، وأن كل دقيقة تذكره بقضية، وأن الدافع الأساسي هو دافع ذاتي، إذ ينفصل الإنسان عن لحظته وحياته الحاضرة ويتصل بالماضي بحثاً عن ملجأ له فيه، و الحديث عنها تؤكد الغربة عن الذات. وهذه الغربة فرضها عليه ما آل إليه الحال من تغير في ملامح البيئة والأحوال إلى أبشع صورة وأسوأ حال، فعباراته: قبري / منقبض الصدر / فرط البكاء / لا يحيط به فكري /حرقة

قلبي / غض عيني على البكا / يضيق بها صدري / ينوء بها ظهري هذه تدل دلالة واضحة على غربةٍ داخلية استحوذت على كيانه ووجدانه.

وشغل الدهر والزمان مساحة واسعة عند الشاعر، فحمل في طياته الكوارث والنكبات ووقف ضعيفاً منكسراً، مما يعزز إحساس الغربة لديه.

ونرى الحكمة ظاهرة عند الشاعر، ولكنه اختار من الحكمة ما يبين بها غربته الداخلية، وما فيها من تحطم وذل وحزن ومآسي.

لأنَّ هلاك النفسِ عند أولي النهى
أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ
وربُ الحجى لا يطمئن بعيشةٍ
فلا خير في وصل يردف بالهجر

ولابد لنا من الإشارة إلى أن أشعار سعدي غلب عليها استعمال الأساليب الإنشائية والخبرية، ليجذب من خلالها المتلقي ويدعوه إلى مشاركة وجدانية فيما يعبر عنه من أفكار وأحاسيس ومشاعر إنسانية ؛ ومشاطرة شعورية فيما يختلج في نفسه من آلام وأحزان تدمي قلبه وتعتصر روحه أو آمال وأماني تحمله إلى آفاق بعيدة رحبة ليحلق في سمائها الصافية ويرتوي من نبعها الفياض، وليثير انتباهه إلى ما يوحي له من دلالات إيمائية ورموز إيحائية، فضلاً عن معانيها اللغوية، ولاشك أن لهذه الأساليب الخبرية والإنشائية إشارات ومعان تضفي على شعر سعدي وكلامه رونقاً ورواء وترفده بزخم كبير من القوة والتأثير مما يدعو المتلقي إلى مشاطرة الشاعر أحاسيسه ومشاعره.

المصادر والمراجع:

- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي
- هانز ميرهزف، الزمن في الأدب، ترجمة د. أسعد رزق مراجعة العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب – القاهرة ١٩٧٢م
- د. عبداللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م
- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- د. الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته
- هانز ميرهوف، الزمن في الأدب
- ابن منظور، لسان العرب، باب الذال ج: ٦
- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن،دار الكتب الحديث – الأردن١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م
- د. حازم عبدالله خضر، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دائرة الشئون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧ م
- موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب في الأندلس من الفتح حتى نهاية دولة المرابطين، أطروحة دكتوراه، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد علي مكي.١٣٩٥– ١٩٧٥ م، جامعة الكويت
- د. أمل، الأثر العر بي في أدب سعدي الشيرازي
- ا لشيخ الخضري، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان – المنصورة
- أ.د عبدالله التطاوي، بين التاريخ والشعر في خلافة بني العباس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠م
- الدكتور محمد رضوان الداية " أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس" ص: ١٤٤و١٤٥
- د. عبدالله بن علي بن ثقفان، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ص: ٩٣.
- محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس
- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم ٣٩٩-٩٢٣هـ) ، أطروحة ماجستير في الأدب العربي القديم بإشراف الدكتور جودت الركابي. ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧ م جامعة قسطنطينة
- أحمد محمود جواد مغنية، الغربة في شعر محمود درويش ١٩٧٢م –١٩٨٢ م، الفارابي ٢٠٠٤م
- الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي.